مقـدمة

أتصور أن أسوأ ما فعله الاستعمار بإفريقيا هو طمسه لتاريخها وحضاراتها القديمة؛ ليصمها بالتخلف والدونية، وبشكل منظم ومدروس أجمع المستعمرون على اختلاف جنسياتهم على اتهام إفريقيا بأنها قارة بلا حضارة، مجرد جماعات من الهمج المتوحشين يأكلون لحوم البشر (لست أدرى أى بشر كانوا يأكلون, هل يأكلون بعضهم، أم يأكلون البيض الغزاة؟!).

والحقيقة أن إفريقيا عندما وطأها المستعمرون الأوائل لم تكن قارة مظلمة متخلفة كما توصف، ولم يكن أهلها بدائيين متوحشين يهيمون فى البرارى والغابات؛ بل كانت قارة ثرية بحضارات عظيمة وزعامات رائعة، ولم يكن أهلها غشمًا متخلفين جاهلين يهللون بالمستعمر مقابل حفنة خرز كما يشاع؛ إنما خضعوا ورضخوا مجبرين تحت ظروف قاسية لمعاهدات هازلة تشين المستعمر قبل أن تشينهم، مثل معاهدات شرق إفريقيا التى تنص على أن «**تبقى هذه المعاهدة سارية إلى أن يبيد التراب ويشيب الغراب**».

لخص لوبنقولا ملك قبائل الماتابيل (زيمبابوى) لأحد المبشرين كيف استعمرت مملكته عام ١٨٨٩م قال: «**أرأيت كيف تقبض الحرباء على الذبابة، إنها تزحف خلفها حتى إذا اقتربت منها كفت عن الزحف والتنفس فترة، ثم تستأنف زحفها بطيئا تقدم رجلاً أولاً وأخرى بعد حين، وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليها بلسانها وتختفى الذبابة.. إن انجلترا هى الحرباء وأنا الذبابة**».

هذا التلخيص والفهم المذهل من ملك الماتابيل للاستعمار ينمُّ عن وعى وإدراك كامل بالأخطار، ويدحض التقارير والأقوال الغافلة عن شعوب إفريقيا ونظمهم القبلية وتقاليدهم وفنونهم وعقائدهم، وهى الأكاذيب التى روجت؛ لكى يشعروا الإفريقى بالخجل من ماضيه وواقعه.

ادّعى المستعمرون أنهم جاءوا إفريقيا ليوقفوا الحروب القبلية والاقتتال الهمجى فيها، فى حين أن تاريخ المستعمرين أنفسهم تاريخ اقتتال وحروب ودمار ؛ فالحضارة الغربية حضارة جائرة تعد فيها الحروب وسيلة تقدمهم من إخضاع ونهب للآخرين. وهؤلاء «المتحضرون» عندما غزوا إفريقيا لم يوقفوا الحروب، بل زادوها اشتعالاً، وبعدما كان الإفريقى يحارب أخاه بالرمح والسهم أعطوه البارود والبندقية ليبيد بعضهم بعضًا، قالوا للإفريقيين: إنهم يريدون أن يعلموهم العبادة، وطلبوا منهم أن يغلقوا أعينهم ، وحينما فتحوها وجدوا الإنجيل فى أيديهم، ووجدوا أن أراضيهم قد اغتصبت، وأنهم أصبحوا جميعًا عبيدًا ، وأن قارتهم باتت قارة مستعبدة.

فى الستينيات من القرن الماضى حصلت أغلب الدول الإفريقية على استقلالها، وقيل وقتها إن القرن العشرين هو قرن إفريقيا؛ فقد انطلق المارد الإفريقى من قمقمه بعد كفاح مرير لحركات تحرير اشتعلت فى طول القارة وعرضها بعد الحرب العالمية الثانية، لم يتم الأمر بسهولة أو بدون ثمن وإنما بذلت من أجله أرواح وتضحيات يعجز الكاتب عن وصفها أو حصرها، وبدلاً من أن تجنى إفريقيا ثمار الاستقلال بدأت تواجه ضغوطًا وتدخلات؛ فتحول التحرر الوطنى إلى استقلال شكلى ؛ عَلَم يُرفع ونشيد يُغنى، ومن رفض الانصياع من الزعماء أمثال «باتريس لومومبا» و«كوامى نكروما» أجهزوا عليه ليكون عبرةً للآخرين، **الأول** اختطف وقتل فى يناير عام ١٩٦١م ووضع جسده فى حامض ليذوب ويمحى تمامًا من الوجود، و **الثانى** أطاحوا به بانقلاب ثم سمّوه ومات لاجئًا خارج بلاده فى أبريل عام ١٩٧٢ م.

وصاحب هذا الغزو الاستعمارى الجديد دعاية خبيثة صدقها كثيرون، وهى أن الأفارقة لا يستطيعون أن يعيشوا أحراراً أو يسيّروا حياتهم بأنفسهم، وأن حالة العبودية هى حالة إفريقية وجدت قبل مجىء الغازى الأجنبى، وأن اقتناص العبيد عبر خمسة قرون وشحنهم فى الأغلال إلى أوروبا والأمريكات[1] لم يكن استرقاقًا، وإنما كان نقلة حضارية انتشلتهم من حالة التخلف والتدنى، يجب على

(١) أقصد بالأمريكات، أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، وأهمية الإشارة إلى أمريكا الوسطى أنها من أكثر المناطق التى حل فيها الزنوج الإفريقيون فى بداية تهجيرهم القصرى.

أحفادهم أن يعوها ويمتنوا لها، حاولوا بذلك أن يمحوا من ذاكرة الإنسانية سرقة الشباب الإفريقى والقذف بهم خارج القارة وقسوة الرحلة وهم مربطون بالسلاسل فى البواخر الأوروبية وموت العديد منهم من سوء التهوية فى السفن أو الطعام الردىء أو من التعذيب أو بالانتحار، فكان منهم من فضّل إلقاء نفسه فى المحيط بدلاً من مواصلة العذاب، ثم نزولهم إلى الأراضى الجديدة ومعاملاتهم كالحيوانات، فهم أشياء منحطة متخلفة من حق السيد الأبيض أن يفعل بهم ما يشاء.

هذه الصورة لم ينجح المستعمرون البيض فى محوها فقد سُجلت ودُونت فى كتابات تاريخية وأعمال فنية وأدبية كثيرة، ولكن الشىء الذى نجحوا فى إخفائه هو ما فعله المستعمرون الأوائل بأهالى البلاد ليخضعوهم، والمقاومة الباسلة التى أبداها الأهالى لصد الغزو عن أراضيهم، وهو النضال الذى خُبئ تحت بساط التاريخ وظل مجهولاً وكلما مر الزمن بعد عن الذاكرة وأصبح نسيًا منسيّا.

والحقيقة أن إفريقيا قبل أن يطأها المستعمر بقرون عديدة قامت فيها ممالك عظيمة وروابط حضارية ومسالك تصل أطرافها بالعالم الخارجى، وعلاقات تجارية وصلت إلى الصين، لم يشهد المستعمرون بشىء من هذا ولزموا الصمت والنكران، وأصرَّ المستعمرون المحدثون على ازدرائهم ونظرتهم الدونية للإفريقيين. يصف رئيس الوزراء البريطانى السياسى الشهير «ونستون تشرشل» فى كتابه اللامع «حرب النهر»، يصف الأفارقة بأنهم **«أقوياء، عقولهم بسيطة، شرسون، يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ على الصيد والقتال، يتزوجون ويموتون، أقصى طموح لديهم هو إشباع رغباتهم الجسدية، يعيشون أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات الأسلاف، يحملون فضائل البربرية، شجعان، جهلاء وجهلهم مصدر براءتهم، تاريخهم جميعًا هو خليط من الشقاء وأسطورة من البؤس»**، وهذه هى نظرة ازدراء الأبيض للإفريقى.

والسؤال: كيف أمكن للإنسان الإفريقى والحضارة الإفريقية أن تقاوم كل هذه الاعتداءات والضغوط؟ كيف استطاع الإفريقى الأعزل أن يقاوم ما فعله المستعمرون الأوائل والرحالة والمبشرون والتجار الأجانب لتحطيم حضارته وممالكه

القديمة وطمس معالمها؟ وكيف أمكن أن يتحمل ويبقى مع إذلاله فى كل المجتمعات التى حلّ بها؟ لعل الإجابة على هذه التساؤلات وحل لغز تحمل الجنس الأسود وشرح تصميم المجتمعات والثقافة السوداء على البقاء، تكمن فى النظم الروحية والعقائد والتقاليد التى كانت مصدر السخرية منه.

رفضت هذا التاريخ المكذوب عن إفريقيا وعكفت أبحث عن الحقيقة، وتكشفت لى القراءات كم كان لهذه القارة البائسة من ماض مشرف وتاريخ عظيم ؛ فمثلا قبل أن تطأ قدم «كريستوفر كولمبس» أرض أمريكا كان الإفريقيون قد وصلوا إليها قبله بعدة قرون، وعاشوا هناك بين أهلها وتاجروا معهم وأثروا فى الحضارة الأمريكية على نحو ما. ويرجع الوجود الإفريقى فى الأمريكات إلى ما قبل التاريخ الأمريكى؛ فالحضارة المصرية وصلت إلى أمريكا حوالى ١٢٠٠ قبل الميلاد، ووصل الماندنجو من غرب إفريقيا إلى هناك حوالى ١٣٠٠م قبل أن تظهر رحلة كولمبس فى الأفق.

كيف أمكن اختفاء هذه الحقائق وكيف أمكن إقصاء هذه القارة، وبعدما كانت سيدة عصرها تحولت إلى قارة مستعبدة وأصبحت شعوبها عبيدًا، سواء كانوا على أرضهم أو خارجها. من هنا تبلورت فكرة الكتابة عن العبودية فى إفريقيا. والعبودية التى أقصدها ليست حالة العبد الإفريقى فقط، وإنما حالة عبودية شملت قارة بأكملها فى الماضى، كانت عبودية بشر وأرض واليوم عبودية ديون وقروض، وكلا الأمرين صورة من حالات العبودية التى كُتب على إفريقيا أن تعيشها قديمًا وحديثًا. وما أردت أن أسجله فى هذا الكتاب أن هذه العبودية لم تتم بسهولة، وإنما لقيت مقاومة واستبسالاً من الإفريقيين الذين دافعوا دفاعًا مستميتًا عن أرضهم وثرواتهم وواجهوا وتعرضوا لصور بشعة من الإبادة الجماعية لإخضاعهم. والتذكير بالممالك العظيمة التى انهارت بعد مقاومة عنيفة وهو تاريخ أطبق عليه النسيان.

وكان مما أثارنى وحفزنى على مواصلة البحث قراءتى للكتاب الأزرق، وهو الكتاب الذى أراد المستعمرون ألا نقرأه فأبادوه وأعدموا نُسخَهَ رغم أنهم هم الذين كتبوه ونشروه، هذا الكتاب كتبه المستعمرون البريطانيون ؛ ليكشفوا فيه ما فعله الاستعمار الألمانى بالإفريقيين ليخضعوهم، ونشروه عام ١٩١٨م بهدف سياسى بعد

هزيمة الألمان فى الحرب العالمية الأولى ؛ ليحلوا لأنفسهم الاستحواذ على المستعمرات الألمانية فى إفريقيا، وبعد أن أدى الكتاب هدفه وانتزعت من ألمانيا مستعمراتها ، اكتشفوا أن الكتاب لا يدين الاستعمار الألمانى وحده، بل يدين كل المستعمرين البيض فأمروا بإعدامه.

وإذا كان المستعمر أراد ألا نقرأ كتابه فقد أردت من كتابى أن نقرأ ماضينا وتراثنا؛ إذ إن شعبًا بدون إحساس بقيمه وماضيه أشبه بسفينة بلا قبطان تتقاذفها الأمواج فلا ترسو إلى بر آمن. وأن ندرك أن العالم الغربى الذى يتشدق بأصل الحضارة والتقدم قد نهل من ثرواتنا وعرقنا وفَنّنَا وحضاراتنا، وأن ما لديه الآن من معرفة هو نتاج امتزاج حضارات وفنون سابقة على حضاراته، فكلنا بناءون مقرضون ومقترضون، ولسنا متخلفين كما يوصموننا ولن نكون عبيد الحضارة الغربية ولن تفقد بوصلتنا الهدف بإذن الله.

* * *

الكتاب يحوى أربعة فصول: **الأول** عن المستعمرين الأوائل، صدرته بموضوع «رسالة ترويض العبيد»؛ لكى يعرف القارئ منذ البداية حجم الظلم والقسوة التى عامل بها المستعمرون عبيدهم، وكيف كانوا يروضونهم ليسحقوا آدميتهم ويحولوهم إلى آلات بشرية بلا مشاعر بلا لغة بلا حقوق بلا أمل. ثم تلاه موضوعات عن الاستعمار البلچيكى، وكيف حكم ليوبولد الثانى ملك بلچيكا الكونغو ٢٣ سنة وهو الذى لم تطأ قدمه قط أرض الكونغو، وطوال هذه السنوات كان الشنق على الأشجار وقطع الأيدى والمذابح التى قتل فيها ما يربو على عشرة ملايين إفريقى هم أدواته لإخضاعهم. ثم البرتغال أول من مارست تجارة الرقيق بعد استعبادهم فى القرن الخامس عشر، وكيف كانت تتم عملية جمع وترحيل العبيد عبر الأطلنطى. ثم الهولنديون وامتلاكهم جزيرة جورى التى كان يتجمع فيها الرقيق، والتى ظلت تحت سيطرتهم حتى باعوها للإنجليز عام ١٨٧٢م. وأنهيت الفصل بالاستعمار الألمانى وأفردت مساحة للكتاب الأزرق الذى يصف عملية الإبادة المنظمة الأولى فى القرن العشرين التى ارتكبتها الحكومة الألمانية فى ناميبيا والكوارث التى ارتكبتها والقتل الجماعى لشعب الهيريرو أو مذبحة الهيريرو التى راح ضحيتها ٦٥ ألف شخص من تعدادهم الذى كان يبلغ حينذاك ٨٠ ألفًا، أى أن ما بقى منهم على قيد الحياة ١٥ ألف شخص فقط.

الفصل الثانى: نقلنى هذا الماضى المرير إلى الحاضر المثار وهو قضية تعويض القارة الإفريقية عما لحقها من تدمير أثناء فترة الاستعمار. ويمكن القول إن الفصل الأول هو مقدمة للفصل الثانى الذى يبحث فكرة تعويض الأفارقة عن حقبة العبودية ومَن يدفع فاتورة السداد. وإذا كان الغرب الآن يوافق على تعويض اليهود عما لاقوه فى معسكرات الاعتقال أيام النازية وهى فترة لا تتعدى عشر سنوات، فكم يدفع للأفارقة الذين شُحنوا قسراً وكرهًا عبر المحيط والذين قتلوا أو أصيبوا فى غمار عمليات جمع الرقيق وما نالوه من التعذيب والإبادة فى أوروبا والأمريكات على مدى خمسمائة سنة، وكم يُدفع للقارة الإفريقية التى فقدت شريحة كبيرة من قوتها وثرواتها البشرية، وأحدثت حملات اقتناص أبنائها دماراً واسع النطاق وزادت من عدد الحروب والتمزق والاضطراب فى مجتمعاتها وأفقدت الحياة أمنها. والموضوع الثانى فى هذا الفصل خصصته للأساس القانونى لمطلب التعويضات وهو بحث قيم قدمه المحامى البريطانى الشهير اللورد أنتونى جيفورد فى المؤتمر الأول لمطلب تعويض العبيد الإفريقيين الذى عُقد فى العاصمة أبوجا بنيجيريا عام ١٩٩٣م، وفيه بيَّن الأساس القانونى لهذا المطلب وهو أن استرقاق الإفريقيين كانت جريمة ضد الإنسانية وأن نتائج هذه الجريمة بقيت شاملة فى القارة وخلفاء الرقيق الإفريقيين وحفدتهم، ومن ثَم فإن قضية التعويض تتأكد بغير أى شك، وأن القانون الدولى يعترف بأن الذين يرتكبون جرائم ضد الإنسانية يجب أن يؤدوا التعويض عن هذا الأمر ويلزمهم تعويض هذه الأضرار. وختمته بما دار فى مؤتمر ديربان الذى عُقد فى سبتمبر ٢٠٠١م فى جنوب إفريقيا لمناهضة العنصرية والتمييز العنصرى وبحث الوسائل العملية للحصول على التعويضات عن العبودية والاستعمار.

والفصل الثالث: خصصته لشخصيات كبيرة وزعامات عظيمة ـ رجالاً ونساء ـ الذين حاربوا بشجاعة وقاوموا بضراوة حتى سقطوا مثل «ياه أشنتيوا» إحدى ملكات الأشانتى فى ساحل الذهب غانا حاليًا؛ فقد أعلنت هذه المرأة الفولاذية الحرب ضد البريطانيين وقادت جيش الأشانتى، ورغم عدم معرفتها بفنون القتال فقد حاصرت القلعة التى كان البيض يحتمون بها، وأثبت هذا التكتيك فاعليته، بحيث إن البريطانيين تركوا الحامية وانسحبوا منها بعد أن تكبدوا خسائر جمة؛ بسبب المجاعة والأمراض. و«شاكا» ملك الزولو الزعيم الوطنى الذى حارب البريطانيين بشجاعة نادرة حتى أصبحت سيرته أسطورة تتداولها الأجيال. والبائسة «سارا بارتمان» التى

ترمز مأساتها لما حدث لإفريقيا فما عانته هذه الفتاة المسكينة هو صورة مجسمة للمعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء جلدتها السود. والملك «خاما الثالث» ملك محمية بتسوانا الذى أجزل العطاء لأطفال أوروبا الجوعى عندما كانت أوروبا تتسول بعد الحرب العالمية الأولى.

الفصل الرابع: جمعتُ فيه وقائع وأحداثًا عن الماندنجو مؤسسى مملكة مالى القديمة أقوى وأغنى الممالك التى ظهرت فى غرب إفريقيا، الذين وصلوا إلى أمريكا واكتشفوها قبل «كريستوفر كولمبس». و«الفلاشا» اليهود الإثيوبيون الذين سرقتهم إسرائيل سرّا، وألقت بهم فى إسرائيل؛ ليكونوا دروعًا بشرية فى مناطق التماس مع العرب. و«چورچ واشنطن» الرئيس الأمريكى زعيم حركة استقلال أمريكا وحركة تحرير شعبها الأبيض من الاستعمار البريطانى، وكيف كان يعامل عبيده الإفريقيين، ومنظمة «البرودر بوند» أخطر المنظمات السرية البيضاء فى جنوب إفريقيا. وقصة «الجذور» أشهر الأعمال الأدبية والجدل الذى يثور حولها. ثم «مَنْ هُمْ عبيد القرن الواحد والعشرين؟».

وختمت الكتاب باكتشاف حضارة «ثولا ميلا» فى الجنوب الإفريقى التى جاءت من وراء التاريخ لتخاطب الحاضر، وتصحح كثيرًا من المفاهيم الخاطئة عن ماضى إفريقيا المجهول، وتدحض الفكرة العنصرية بأن إفريقيا قبل استعمارها كانت قبائل بدائية متخلفة بلا حضارة.

هذه لمحة سريعة لموضوعات الكتاب عرضتها بإيجاز شديد حتى ترشد القارئ عن علاقة الموضوعات بعضها ببعض وكيف صنفت. وأرجو أن أكون بهذا العمل قد كشفت قدرًا من خبايا تاريخ إفريقيا وأسراره.

وفى النهاية أوجه الشكر لمجلة «نيو أفريكان ـ New African» فقد استعنت كثيرًا بمادتها وموضوعاتها، وأعترف صادقة أنها هى التى أوحت لى بفكرة الكتابة عن العبودية فى إفريقيا، فطوال سنوات عديدة نشرت المجلة موضوعات قيمة كثيرة، من تجميعها وفرزها وتنقيحها والبحث حولها تبلور هذا الكتاب؛ فلها كل الشكر والامتنان.

عايدة العزب موسى